القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

غزوة تبوك

عبد الحميد جودة السحار

٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفافًا وثِقالاً ، وجاهدُوا بأموالِكم وأنفُسِكم فى سبيلِ اللّه ، ذلِكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، لو كانَ عَرَضًا قريبًا ، وسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبعُوكَ ، ولكنْ بَعُدَتْ عليهم الشُقَّة ، وسَيحلِفُونَ باللّهِ لو استطَعنا لَخرَجْنا معَكم ، يُهلِكون أنفُسَهم ، واللّهُ يعلَمُ إنّهم لكاذِبُون » .

(قرآن كريم)

١

رأى هِرَقْلُ إمبراطورُ الرُّوم ، أنَّ الإسلامَ انتشر فى جزيرة العرب ؛ فَعَزمَ على أن يجمَعَ جيشًا لقتالِ المسلمين . كانَ يخافُ أن يبتلِعَ الدينُ الجديد دَولَته ؛ فجمعَ جمُوعًا كثيرةً بالشامِ ، تحتَ العَلَمِ الرُّومانِى ، وكان يَزينُ ذلكَ العَلَمَ نَسْر ؛ وكانت قُوَّةُ جيشِ هِرَقل أربَعينَ ألفًا من خِيرَة مقاتِليه .

وبلغَ رسولَ اللّه ﷺ ، أنَّ هِرَقْلَ يَجمَعُ الجيوشَ لِقتالِه ، فرأى أن يخرُجَ إلى الشامِ لِيُقاتِلَه هناك ، ولا ينتظِرَ حتى يأتِىَ هِرَقلُ إلى بلادِه ؛ لأنَّه إذا هُزِمَ فى بلاده ، كان فى ذلك القضاءُ عليه وعلى المسلمين . كان الجوُّ حارًا ، والناسُ فى شِدَّة ، وكان أوانُ جَنْىِ الثّمار ، فكان الناسُ يُحبُّونَ المَقامَ

فى ثِمارِهم وظِلالِهم ؛ وكان السَّفَرُ بعيدًا ، والعدُوُّ قويّا ، لذلك أخبرَ رسولُ اللّه ﷺ الناسَ أنَّه خارجٌ إلى تبُوك ، ليستعِدُّوا ، وما كانَ يُخبرُهم قبلَ هذِهِ الغَزْوَةِ إلى أينَ يتوجَّه ، حتّى لا يستعِدَّ له أعداؤه .

كانت هذه الغَزْوةُ تحتاجُ فى تَجهيزِها إلى أموالٍ كثيرة ، فَدعا أغنياءَ المسلمينَ إلى النَّفَقَة ، وحمْلِ الفُقَراءِ ، والإِنفاق عليهم ، فَأنْفَقَ عثمانُ بنُ عفّانَ نفقَةً عظيمة ، لم يُنفِقْ أحَدٌ مثلَها ، فإنَّه جهَّزَ عشرةَ آلافِ مقاتِل ، فقال ﷺ :

ـــ اللّهمَّ ارضَ عن عثمان ، فإنّى عنه راض .

وجاءَ أبو بكر الصِّدّيقُ بجميعِ ماله ، أربعةِ آلاف دِرْهم ، وقَدَّمَها إلى رسولِ اللّه ﷺ ، فقال له الرَّسول :

ـــ هلْ أبْقَيتَ لأهلِكَ شيئا ؟

فقال أبو بكر فى إيمان :

– أبْقَيتُ لَهمُ اللّهَ ورسولَه .

وجاءَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ إلى رسولِ اللّـه ﷺ ، بِنِصْفِ مالِه ، فقال له الرّسول :

– هل أبْقَيتَ لأهلِكَ شيئا ؟

فقال عمرُ بنُ الخطّاب :

– النّصفَ الثانى .

وأرسَلَ المسلمونَ إلى رسولِ اللّـه ﷺ أموالاً كثيرة لِيُجَهِّزَ بها الجيشَ الخارجَ لِقتالِ الرُّوم ، وبعَثتِ النساءُ بكلِّ ما يقدِرْنَ عليه من حُلِيِّهن ، وأخَذَ رسولُ اللّـه يُنفِقُ هذه الأموالَ فى إعدادِ الجيش ، الذى سُمِّىَ جيشَ العُسْرة ، لأنه تكوَّن فى سَنةٍ شديدةٍ عَسيرة .

٢

استعدَّ جيشُ المسلمينَ للخروج ، فجاءَ سبعةُ رجالٍ إلى رسولِ اللّه ، يسألونَه أن يحملَهم ، فقال لهم الرسول :

ـ لا أجدُ ما أحمِلُكُم عليه .

لم يكن عِندَه جمالٌ أو بغالٌ يحملُهم عليها ، فحزِنَ الرِّجال ، كانوا يُريدونَ أن يُحاربُوا فى سبيلِ اللّه ، ولكنهم لم يجدوا ما يخرجونَ للقتالِ عليه ، وزاد حزنُهم ، حتى إنهم تركُوا النَّبىَّ ﷺ وهم يبكونَ حُزنا . وقبل أن يخرُجَ النبىُّ إلى القِتالِ وجَدَ ما يحملُهم عليه ، فأرسلَ إليهم ، وأعطاهم جمالا ركبوها ، وانطلقوا مسرورين .

وعَقَدَ رسولُ اللّه ﷺ الألويةَ والرَّايات ، فدَفع

لِواءَه الأعظَمَ لأبى بكـر الصّدّيـق ، ورايَتـه العُظمَى للزُّبَيرِ بنِ العَوّام ، ودَفَعَ رايـاتٍ أخـرى للأنصـار .

وقبلَ أن يسيرَ النبىُّ ﷺ ، بلغَـه أنَّ بعـضَ الرجـالِ من المسلمينَ قد اجتمعوا فى بيـتِ رجـل يَهـودِىّ ، وراحوا يقولون :

ـ لا نخرجُ فى الحرّ لقتالِ الرُّوم .

فأنزَلَ اللّه فيهم :

ـ ﴿ قـل نـارُ جَهَنّمَ أشَـدُّ حَـرًّا لـو كـانوا يفقَهـون ﴾ (أى يعلمون) .

وسـارَ جيشُ المسلمينَ فـى الصحـراء . كـانت الحرارةُ شديدةً تشوى الوُجُوه ، فكان بعضُ الرِّجـال يتخلّفُونَ ويعودونَ إلى المدينة ، حيثُ الظّـلّ ، فكـانَ المسلمونَ يقولون لرسولِ اللّه ﷺ :

ـ تخلّفَ فُلان .

فيقُولُ الرسول :

ـ دعوه ، إن يكُ فيه خيرٌ فسيُلْحِقُه اللّه بكم .

واستمرَّ الجيشُ في سَيرِه في الصَّحْراء ، ليالِيَ وأيَّاما حتى نَفِدَ الماء ، واستبدَّ العَطَشُ بهم ، حتى كادَ يقطَعُ رقابَهم ، فاضطُرُّوا إلى ذبحِ إبلِهم ، وشقِّ كُروشِها ، وشُربِ ما فيها من ماء ، واشتدَّ الكَربُ بالناس ، فجاءَ أبو بكر إلى رسول اللّه ﷺ ، وقال :

- يا رسولَ اللّه ، قدْ عوَّدَكَ اللّهُ من الدُّعاء خَيرا ، فادعُ اللّه لنا .

قال رسول اللّه ﷺ :

- أتُحِبُّ ذاك ؟

قال أبو بكر : « نعم » .

فراح رسولُ اللّه يدعو اللّه ، ورفَعَ يديه بالدُّعاء ، فلم يُرجعْهما حتى أرسلَ اللّه سحابة ، فأمطرتْ حتى شرِبَ النّاس ، وأخذُوا ما يحتاجُونَ إليه من ماء .

وسارَ الجيشُ في اللّيل ، ونالَ الناسَ التّعب ، ولكنهم لم يناموا ، لأنَّ الفجرَ قد اقْترَب ، وكانوا

يُريدونَ أن يُصلُّوا الفجر ، وقال لهم بلال :

- نامُوا وأنا أوقِظُكُم .

فاضطجعُوا ، وراحُوا في النَّوم ، وغلبَ النَّومُ بلالا ، فلم يوقِظ الناسَ في الفجر ، فلما استيقظَ رسولُ اللّه دعا بلالا ، وقال له :

- يا بلال ، أين ما قلت ؟

فقال له بلالٌ معتذرا :

- يا رسولَ اللّه ، ذهبَ بي مثلُ الذي ذهبَ بك .

ولم يغضبْ رسولُ اللّـه وقام يُصلّي بعدَ أن فاتَه الفجر ، وقام المسلمونَ يصلُّون ، ولمَّا انتهَوا من صلاتِهم ركبوا جمالَهم وساروا ، ولاحَظَ رسولُ اللّه ﷺ أن النَّاسَ يتهامَسون ، فقال :

- ما هذا الذي تهمِسُونَ دُونِي ؟

فقالوا :

- يا رسولَ اللّه ، نهمِسُ بتفريطِنا في صلاتِنا .

فقال لهم ﷺ :

ـــ أما لكـم فىَّ أُسوَةٌ حَسَـنة ؟ ليـس فى النَّـومِ تفريط ، إنما التَّفريطُ على من لم يصلِّ الصلاة ، حتـى يجىءَ وقتُ أخرى .

٣

وصلَ جيشُ المسلمينَ إلى تبوك ، فلم يقابلْ جيـشَ الـرُّوم . أفـزع خـروجُ المسـلمينَ للقتـالِ الـرُّوم ، فسحبوا جيوشهم وأبَوا القِتالَ . ولما كان رسولُ اللّه ﷺ لم يخرجْ إلا للدفاع عن المسلمين ، ولم يكن يُريدُ الحربَ لذاتها ، ولا يريدُ إرغامَ الناسِ على الدخـولِ فى الإسلامِ بالسَّيف ، بقِيَ فى تَبُوكَ ولم يتقدَّم ، ولـو شاءَ أن يُغِيرَ على الشَّام لكان ذلك سهلاً ؛ كان فـى سبعينَ ألف مقاتِل من المؤمنين .

ومرَّت أيامٌ ورسولُ اللّه ﷺ فى تَبُوك يُصلّى للّه ، وينتظرُ ظهورَ جيش الرُّوم ، فلما وثِقَ من أنهـم

لا يعتدونَ عليه ، فكر فى العـودة بعـد ذلـك التعب الشَّديد ، الذى قاساه المسلمونَ فى قطع الصحراء ، فهو لا يحبُّ أن يبدأ بالعُدوان أحدا .

أمر رسـولُ اللّـه ﷺ النـاسَ بـالعَودَة ، فركِبُـوا جمـالَهم ، وغـادروا تبوك ، وفـى الطَّريـق اجتمـعَ رجالٌ مِمَّن يُظهرونَ الإسـلام ، ويكرهـونَ الرَّسـول ، وهم المُنافقون ، واتفقُوا على أن يدفعوا رسـولَ اللّـه ﷺ عن ناقتِه ، عند مرورهم بالعقَبَة التـى بـين تَبوكَ والمدينة ، والعَقَبةُ مكانٌ صخْرىٌّ ضيِّقٌ مظلـم ، وقـد اختاروا هذا المكانَ حتى لا يراهم أحد وهم يخونـونَ الرَّسول ، ويدفَعُونَ به إلى الوادى ليَقتُلوه .

وأخبرَ اللّـه رسولَه الأَمينَ بذلك ، فلما وصـلَ الجيشُ إلى العَقَبة ، نادى منادِى رسول اللّه ﷺ :

ــ إنَّ رسـولَ اللّـه ﷺ يُريـد أن يسلُكَ العَقَبـة ، فلا يسلُكها أحد ، واسلُكوا بطنَ الـوادى ، فإنـه أسلكُ لكم وأوسَع .

فسار النّاسُ فى بطن الوادى ، وسار رسولُ اللّه ﷺ فى العقَبة ، وكانت مظلمةً هادئة ؛ وكان رجُلانِ من أصحابه يسيران معه ؛ أحدهما أمام ناقَتِه ، والآخرُ خلفَها . وجاءَ الرّجالُ الذين اتفقوا على الغدر برسول اللّه ، وكانوا ملثّمين ، يخفونَ وجوهَهُم . وأحسَّ رسولُ اللّه بقربهم ، فصَرَخَ بهم ، فخافُوا وهَرَبُوا بعدَ أن عَلِمُوا أن رسولَ اللّه اطّلَعَ عَلى مَكْرِهِم به ، واختَلَطُوا بالنّاسِ الذين كانوا يسيرونَ فى الوادِى الواسِع .

وجمعهم رسولُ اللّه ﷺ بعد أن مرَّ من العَقَبة ، وأخبَرَهم بما قالوه ، وبما اتفقُوا عليه ، فحَلَفُوا باللّه ما قالُوه ، ولا أرادوا قتلَه ، وأشارَ عليه بعضُ أصحابه أن يقتُلَهم ، فقال رسولُ اللّه ﷺ :

— أكرهُ أن يتَحدَّثَ الناسُ أنَّ محمَّدًا يقتُلُ أصحابَه .

وأنزَلَ اللّه فيهم قرآنا : ﴿ يَحْلِفُونَ باللّه ما قالوا ،

ولقدْ قالوا كلِمةَ الكُفر ﴾ .

٤

وبنى المنافقونَ مسجدًا بجوارِ مسجدِ قُباء ، الذى بناهُ رسولَ اللّه ﷺ أوّلَ ما جاءَ إلى المدينة . كانوا يجتمعُونَ فيه ، ويَعِيبُونَ النبىَّ ﷺ ، ويستهزِئونَ به ، وكانوا يُريدونَ أن يجمَعُوا فى هذا المسجدِ السّلاح ، ثم ذهبُوا إلى قَيصرَ ملكِ الرُّوم ، يطلبونَ منه أن يُمدّهم بجنْد ، يساعدونهم على إخراج محمد ﷺ وأصحابه من المدينة .

وفى أثناء عودةِ الرسول من تَبوك ، مرَّ بهذا المسجد ، فطلبَ المنافقونَ منه أن يصلّى فيه ، فأوحَى اللّه إلَيه : « والذينَ اتّخذُوا مَسجدًا ضِرارًا وكُفرًا وتفريقًا بين المؤمنين ، وإرصادًا لِمَنْ حاربَ اللّهَ ورسولَه من قَبل ، ولَيَحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحُسنَى ،

واللّـه يشـهَدُ إنّهـم لكـاذِبون ، لا تَقُـمْ فيـه أبَـدًا ، لَمَسجدٌ أُسّسَ علـى التّقوى من أوّلِ يـوم أَحَقُّ أن تَقـومَ فيـه ، فيـه رجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتطَهَّرُوا ، واللّـه يُحبُّ المتطهِّرين » .

فدعا رسولُ اللّه ﷺ بعضَ أصحابه ، وأمَرَهـم أن يذهَبُوا إلى هـذا المسجد ، الظالِم أهلُـه ، ليُحرِّقـوه بالنار ، فذهَبَ أصحابُه إليه وحَرَّقوه ، لأنّـه لم يكـن مسجدًا للّه ، بل كان المنافقونَ يُدبِّرُونَ فيـه الكَيـدَ للإسلامِ والمسلمين .

٥

دخلَ رسولُ اللّه ﷺ المسجدَ فى المدينة ، وصلّى ركعَتين ، ثم جلسَ للناس ، فجاءَ إليه الذين تَخَلّفُوا عن الخُروجِ معه ، فأخذُوا يعتذِرونَ إليه ، ويحلِفُونَ له أنَّ العُذْرَ منعهم ، فقبِلَ منهم ما أعلَنوه ، لأنه كان يقبَلُ ما يعلِنُه الناس ، ويتركُ للّه ما يُخفُونَ فى صُدورهم . وجاءَ كعبُ بنُ مالك ، وكان رجُلاً من خِيارِ الأنصار ، ولكنه لم يخرج معه فى غزوةِ تَبُوك ، فقال له رسولُ اللّه ﷺ :

ـ تعالَ ، ما خَلّفَك ؟

لم يشأْ مالِكٌ أن يَعْتذِرَ بالكذِب ، كان رجُلاً طيّبا ، يعلمُ أنَّ اللّه يكرهُ الكذّابين ، فقال :

ـ لا واللّه ، ما كان لى عُذْر ، وواللّه ما كنتُ قط

أقوى ولا أيسرَ منّى حينَ تخلّفتُ عنك .

فقال رسولُ اللّه ﷺ :

ـ أمّا هذا فقد صَدَق ، فقم حتّى يقضِيَ اللّه فيك .

وجاءَ اثنان صادِقان إلى رسولِ اللّه ، فقالا له إنهما ما كان لَهما من عُذْر فى تَخَلُّفِهما عنه ، فأمرَ رسولُ اللّه الناسَ ألاّ يُكلّموا هؤلاء الثلاثة ، حتى يقضِيَ اللّه فيهم .

لم يُكلّمهمُ الناس ، وظلُّوا يبكونَ ندما ، ومرَّت خمسونَ ليلة ، ولم يُكلّمهم أحد ، فضاقَت عليهم الدنيا ، واشتدَّ الكربُ بهم ؛ وفيما هم فى شدَّتهم ، جاءَ الناسُ يُهَنّئونَهم ، فقَدْ أنزَلَ اللّه فيهم قُرآنا ، وتاب عليهم ، وعفا عنهم .